الشعر العربي ودوره في تصوير الحياة العربية في فترة ما قبل الإسلام

د. محمد عبد الرحمن الجاغوب

ملخص البحث

الشعر فنّ أدبي يُعبّر عن مشاعر قائليه، ويُصوّر جوانبَ من حياة الأمم والشعوب، والشعر العربي ديوان العرب، اهتموا به كثيرا، وحَظِيَ الشعراء بمنزلة مُهمّة في الحياة العربية، لا سيما في العصر الجاهلي حيث لم تكن القراءة والكتابة شائعة بين العرب، وكانت المشافهة والرواية هي الوسيلة المتاحة آنذاك، هدأتْ وتيرته مع ظهور الإسلام، ثم عاد للتألق والازدهار في العصور اللاحقة، وما يزال العربُ يتميزون به، وما يزالُ جزءًا من أدبهم وثقافتهم، يصور همومَهم ويعكس تطلعاتهم. والمتتبع لهذه الظاهرة الأدبية يدرك أنها كسائر الظواهر، تعتريها حالات من التوهج والألق، وحالات من الضعف والفتور، تبعا لأحوال الأمة. والباحث في هذه الدراسة سعى إلى تسليط الأضواء على المكانة الأدبية للشعر العربي ودَوْره في تصوير حياة العرب. وقد توصّلت الدراسة إلى أنّ الشعر العربي يمكن الاعتماد عليه كمصدرٍ من مصادر البحث العلمي في التاريخ العربي؟ وأنّه يمكنه أن يلعبَ دورا في إيقاظ الوعي القومي لدى العرب وأن يكون أداة للدفاع عن قضاياهم الوطنية؟

إنّ مَن يطّلع على نتائج هذه الدراسة يتعرّف كثيرا من القيم والعادات والتقاليد والظواهر الاجتماعية التي سادتْ المجتمعَ العربي في العصر الجاهلي، ووجدتْ صداها في الشعر العربي في تلك الفترة، ويُمكنه أن يلمح أثر البيئة في خيال الشعراء وفي نتاجاتهم الأدبية، ويُدرك أنّ الشعرَ له دور بارز في تصوير الحياة العربية، وفي توثيق صلة أبناء الأمة العربية بلغتهم واعتزازهم بها، وإبراز الطاقات العربية وتوجيهها نحو تعزيز الروابط الأخوية بين أبناء الأمة الواحدة، ورفع الروح المعنوية لديهم، ووضعهم على خطوط التماس مع أعداء الأمة.

مقدّمة:

الشعرُ أحدُ شِقّي الأدب، فهو صِنو النثر، وقد عرّفه العروضيّون بأنه الكلام الموزون والمقفّى، وأضاف ابن خلدون إلى هذا التعريف بأنه الكلام البليغ الجاري على أساليب العرب المخصوصة به، ويرى عتيق (١٩٧٢) أنّ الشروط الواجب توفرها في الكلام حتى يكون شعرا هي: الوزن والقافية والاتصال الشعوري المنبعث من عاطفة والمثير لعاطفة ، فإذا توفر الوزن والقافية دون غيرهما كان الكلام نظمًا، كمنظومة ابن مالك في النحو، ومنظومة متن الجوهر المكنون في علوم البلاغة. والشعر من الفنون الجميلة الأكثر ارتباطًا بالموسيقا بسبب أوزانه التي يقوم عليها، والشعراء في رأي الرومان ليسوا إلاّ مُغنين يترنمون بشعرهم.

وحين يُنظر إلى الشعر من حيث الوظيفة الجوهرية له يتأكد بُعْد المسافة بينه وبين التاريخ، أما حين يُنظر إليه من حيث المُنجز منه عبر التاريخ فإنّ مؤرخ الأدب يُحس بأنّ عمله أقرب إلى التاريخ من عمل المؤرخ ذاته، ومهمّة الشاعرالحقيقية ليست رواية الأمور كما حدثتْ فعلاً، ولكنها تكمن في رواية ما يمكن أن يَحدث؛ لأنّ الشعرَ بناءٌ تتفاعل فيه التجربة الشعورية للشاعر مع الواقع. وعندما يجري استعراض ما قيل من أشعار في فترات متعاقبة يتبين مدى ارتباط الشعر بالواقع، ومدى تسجيله للأحداث، وقد أدّت الواقعية الخطابية في الشعر إلى نشوء نظرية تعتبرُ الشعرَ وثيقة أدبية تصوّر الأحداث وتجمعُ بين المتخيّل والواقع، باعتبار أنّ الأدب علاقة تفاعلية بين النص والمتلقي)١(وهذا يتفق ونظرية المنهج التاريخي للأدب التي تركز على العلاقة بين الأدب والتاريخ؛ لأن أدب أي أمة من الأمم يُعدُ تعبيرا صادقا عن حياتها ومصدرا مهما من مصادرها،

والشعر العربي يُعدُّ من أكثر الوسائل تعبيرا عن البيئة العربية منذ العصر الجاهلي، حيث يتضمن مادة ثرية تحمل أصداء المجتمع الذي عاش فيه الشاعر، كأفكار المجتمع وعاداته وقيمه وتقاليده وحالته الدينية والفكرية. (شعبان،٢٠١٢)

هدفت هذه الدراسة إلى تسليط الأضواء على المكانة الأدبية للشعر العربي، وتعرّف أهميته ودَوْره في تصوير حياة العرب، وما يكتنفها من قضايا ومشكلات وهموم وتطلعات، والوقوف على مراحل تطوره. فهل يحظى الشعرُ بمكانة مُهمَّة في عقلية الإنسان العربي؟ وهل يعكس الشعر العربي صُوَرًا واضحة من حياة العرب؟ وهل يستطيع القارئ للشعر العربي أن يَتلمَّسَ ملامح الشخصية العربية وطريقتها في التعامل مع مشكلات الحياة؟ وهل يمكن اعتماد الشعر العربي مَصْدرا من مصادر البحث في التاريخ العربي؟ هذا ما يسعى إليه الباحث من خلال هذه الدراسة، ومن خلال ما سيتم استعراضه من شواهد شعرية وحالات تاريخية أفرَزتْها.

الشعر عند العرب أقدمُ من النثر؛ نظرًا لتأخر إلمامهم بالقراءة والكتابة؛ فقد أشار عنترة بن شدّاد العبسي في مطلع معلقته إلى أنّ الشعراءَ الذين جاؤوا قبله قد استنفدوا المعاني، ولم يتركوا لِمَن بَعدَهم ما يُمكن ابتكاره، يقول في مطلع معلقته:

هل غادَرَ الشعراءُ من مُتردّم
أم هل عرفتَ الدار بعد توهّم

وليس من المعروف على وجه الدقة متى بدأ العربُ قولَ الشعر، لكنّ ابنَ قتيبة ذكرَ في (الشعر والشعراء) أنّ من قديم الشعر قولَ دُوَيد بنَ نهد:

اليومَ يُبنى لدُويْد بيتُه
لو كانَ للدّهر بلىً أبليتُه

ودُوَيدٌ هذا عُمِّر طويلا حتى فاق عُمره الأربعمئة وخمسين عامًا، ويُقال بأنّه أدركَ الإسلام وهو لا يعقل. أمّا أبو زيد القرشي فقد أوردَ في مقدمة (الجَمهرة) أشعارا نسَبها للملائكة ولآدم والجن ولإبليس ولعاد وثمود، فممّا نَسبَه لآدم عليه السلام قولُه عندما قَتَلَ أحدُ أبنائه أخاه:

تغيّرت البلادُ ومن عليها
فوجهُ الأرض مُغبرٌّ قبيحُ
أهابلُ إنْ قُتلتَ فإنّ قلبي
عليك اليوم مُكتئبٌ قريحُ

وممّا نَسَبَه للملائكة قولُ أحدهم:

لِدوا للموتِ وابنوا للخرابِ فكلّكمُ يصيرُ إلى الذهابِ

وممّا نَسَبه لمعاوية بن بكر بن الحبتر بن عتيك سيد العمالقة قولُه مُخاطبًا قَيلَ بن عَير:

ألا يا قَيْلُ ويحَكَ قُمْ فهَينِمْ
لعلَّ اللهَ يَصبَحُنا غَماما
فيسقي أرضَ عاد إنّ عادًا
قَدَ اضْحَوا ما يبيتون الكلاما
من العطشِ الشديد بأرضِ عادٍ
فقد أمسَتْ نساؤهمُ أيامى

غير أنّ ما وصلنا من شعر عربي مُحكم الصياغة قوي التراكيب وجيد المعاني لا يزيد عُمره عن مئتي سنة قبل الإسلام. ونظرًا لعدم توفر الكتابة كان الشعر في العصر الجاهلي يُحفظ ويُتناقل بالرواية، وقد أوردَ صاحبُ الأغاني سلسلة من الشعراء الرواة، منهم: أوس بن حجر التميمي الذي أخذ عنه زهير ابن أبي سلمى، وعن زهير روى ابنه كعب والحطيئة، وعن الحطيئة روى هُدبة بن خشرم، وقيل أنّ الأعشى ميمون قيس كان راوية لخاله المُسيّب بن علس، وأنّ أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جُؤية الهذلي (٢).

الشاعر والقبيلة:

كان إذا ظهَرَ في قبيلة شاعرٌ أقامتْ قبيلتهُ الاحتفالات، وهنّأتها بظهوره القبائلُ؛ لأنه يتغنى بمفاخرها ويُمجّد بطولاتها، ويهاجم أعداءَها، وربما يَعظمُ أمرُ الشاعر فيصبح سيدَ قومه، والشعراء الذين سادوا قومَهم كُثر، منهم: الكلحبة العُرَني، والجُميح الأسدي، وبشامة بن عمرو، وسلامة بن جَندل، وعامر بن الطُفيل، وسِنان بن أبي حارثة المرّي وابنه هرم، والحُصين بن الحُمام المرّي، وعبد يغوث بن وقاص الحارثي سيد بني الحرث بن كعب، والحارث بن وعلة الجَرمي سيد قضاعة وفارسها وشاعرها، وغيرهم)٣(والشاعرُ شديدُ الانتماء لقبيلته، مُلتزمٌ بسياساتها، يقول دُريدُ بن الصِّمة:

وهل أنا إلا من غُزيَّة إنْ غوتْ
غَويْتُ وإنْ ترشدْ غُزيَّةُ أرشُد

فهو من قبيلة يغوى بغوايتها، ويَرْشدُ برشدها. و هُدبة بن خشرم يُقرُّ بأنّه من قبيلة قضاعة، وهو يُدافع عنها؛ ويكيدُ مَن يَكِدُها، ويهجو مَن هجاها، ويتسامح مع مَن يُخطئُ بحقه من أبنائها:

وإنّي من قُضاعة مَن يَكِدُها
أكِدْهُ وهي منّي في أمانِ
سأهجو مَن هجاهم من سواهم
وأعرضُ منهمُ عمّن هجاني

ولم يكن حقُّ الطاعة والانتماء مَطلوبًا من أفراد القبيلة فحَسْب، بل إنّ لكلّ فردٍ

من أفراد القبيلة حقُّ الحماية والنصرة على قبيلته إنْ احتاج إليهما، فهذا قريط بن أنيف استُبيحَتْ إبلُه من قِبَل أفراد من بني ذهل بن شيبان، ولمّا طلب النجدة من قبيلته (بني العنبر) تقاعسوا وأحجموا، فلامَهم على تقصيرهم بحقه، وتمنّى لو أنّ انتماءَه كان لبني مازن، إذَن لحَمَوْه ونصروه وآزروه، وفي ذلك يقول:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستَبِح إبلي
بنو اللقيطة من ذُهلِ بن شيبانا
إذًا لقامَ بنصري مَعشَرٌ خُشُنٌ
عندَ الحفيظة إنْ ذو لوثة لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يَسألون أخاهم حينَ يندُبُهم
في النائبات على ما قال بُرهانا
لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عدَد
ليسوا من الشرّ في شيءٍ وإنْ هانا

فبنو مازن قوم أشدّاء، مهيبو الجناب، إذا كشَّرَ الشرُّ عن ناجذيه لهم هَبّوا مُسرعين لملاقاته، وهم بذلك يَحمون ضعيفهم ويَمنعون حليفهم دون أنْ يتباطؤوا لطلب دليل منه أو برهان، وهم على النقيض من بني العنبر الذين يخافون الشر ويُحجمون عند اللقاء.

منزلة الشعراء وتأثير الشعر:

اهتمّ العربُ بالشِّعرَ اهتماما كبيرا، وتهيّأ لهم من أسباب نظمه سلامة الفطرة ونقاء البيئة وثراء اللغة بالمفردات، فنظموه رجالا ونساء، سادةً وعبيدًا، وأقاموا له المَحافلَ والأسواق، وحَفظوه وتغنَّوا به في حِلّهم وترحالهم، وفي حروبهم، ووصفوا به بيئتَهم الصحراوية، وما تشتملُ عليه من رمالٍ وحيوانات، وما يتصل بها من ظواهر طبيعية واجتماعية. يقول امرؤُ القيس بن حجر مُخاطبًا الليل:

فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نُجومَه
بكلِّ مَغار الفَتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ
كأنّ الثُريَّا عُلِّقَتْ في مَصامها
بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَندلِ
(ديوان امرئ القيس،٢٠٠٢، ص:٣٢).

فالشاعر ضائقٌ بالليل بَرِمٌ به بسبب حالة نفسية ألمّتْ به، حتى أنّه ظنّ أنّ الليل ليس له انجلاء، فالنجوم تبدو له لا تبرحُ مكانها، فكأنّها موثوقة بحبال إلى جبل (يذبل) العظيم، وكأنّ مجموعة نجوم الثريا مربوطة بحبال إلى صخور صمّاء كبيرة. وهو عندما يصف حالته النفسية وليله الطويل لا يبتعد عن بيئته، فصُوَرهُ وتشبيهاته مستمدّة من سماء الصحراء وتضاريسها. كانت منزلة الشعراء في نظر العرب عالية جدّا، وتأثيرُ الشِّعر كبيرا في نفوسهم، فالشاعرُ إذا مَدَحَ رَفع، وإذا هَجا وضَعَ.

الشعر والقيَم العربية:

بما أنّ الشعر العربي عموما والجاهلي منه على وجه الخصوص يُعبّرُ عن شعور قائليه، ويصوّر ظروفهم الحياتية، وتجاربهم الشعورية، ويعكس صورة المجتمع الذي ينتمون إليه، فإنّ المتتبع لهذا الشعر ولتجاربه المتعددة عبر العصور المختلفة يلاحظ عددا من القيم الإنسانية التي سادت المجتمع العربي، وكثيرا من العادات والظواهر الاجتماعية التي شاعتْ في ذلك المجتمع أيام السِّلم و الحرب.

ظاهرة التصعلك:

تدل لفظة (الصعاليك) على نفر من الفرسان الذين تفرغوا للإغارة على القوافل وقطع الطرق، ويتّصف هؤلاء بالصبر والشجاعة وسرعة العَدْو، وبعض هؤلاء الصعاليك مَن خلعته قبيلته لكثرة جرائمه، كقَيس بن الحدادية وأبو الطحان القيني وحاجز الأزدي. وبعضهم لم يُلحقْه أبوه بنسبه كتأبّط شرّا والسُليك بن السُلكة والشنفرى الأزدي، ومنهم مَن اتخذ التصعلك مهنةً كعُروة بن الورد العَبسي. يقول ثابت بن جابر(تأبّط شرّا) واصفًا سُرعته في العَدْو، وأنّه لاتلحق به الجياد ولا تسبقه الطيور:

لا شيءَ أسْرعَ مني ليس ذا عُذَرِ
وذا جناحٍ بجَنْبِ الرَيْدِ خَفّاقِ
عاري الظنابيبِ مُمتدٌّ نواشره
مِدْلاج أدهمَ واهي الماء غسّاقِ

وكانوا أكثرَ ما يُغيرون على طرق التجارة ومناطق الخصب في سواحل الحجاز وتهامة. يقول الشنفرى الأزدي واصفًا إحدى غاراته على بني سلامان قتلة أبيه:

وباضعةٍ حُمْرِ القسيِّ بعثتُها
ومَن يَغزُ يغنمْ مرّةً ويُشمَّتِ
خرجنا من الوادي الذي بين مشعَلٍ
وبينَ الجَبا هيهاتَ أنشأتُ سُربتي
جَزَيْنا سلامان بن مُفرجَ قَرْضَها
بما قَدّمَتْ أيديهُمُ وأزلّت.

ولمّا كان الفقر في العصر الجاهلي سِمَةً اجتماعية فقد كانَ همّهم الغِنى وانتزاع المال من أيادي الأغنياء، وكان بعض الصعاليك يمتلك سِمات خلقية إنسانية كالكرم والعطف على الفقراء، فيسلبون المال ثم يجودون به. يقول عُروَةُ بن الورد: ذريني للغِنى أسْعَى فإنّي رأيتُ الناسَ شرّهم الفقيرُ.

ويقول في موقف آخر:

إني امرؤٌ عافٍ إنائي شركةٌ
وأنتَ امرؤٌ عافٍ إناءكَ واحدُ
أقسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراحَ الماء والماءُ باردُ.

ويقول أبو النشناش مُتعجبًا من الفتى يرضى بالفقر والمغانم مبذولة للمغامر:

وسائلة بالغيبِ عني وسائلٍ
ومَن يسأل الصعلوك أين مذاهبُه!
فلم أرَ مثلَ الفقرِ ضاجَعه الفتى
ولا كسوادِ الليلِ أخفقَ طالبُه.(٤)

ظاهرة الكرَم:

فرضَ الترحالُ والتنقل في الصحراء على العربي المشقة والتعب والجوع، وأحوجَه شح الموارد وبعد المسافات إلى الطعام، وكثيرا ما كان يهلك الضارب في الصحراء جوعًا وظمأً، وكان المسافر يأنس إنْ رأى نارا من بعيد فيأوي إليها يلتمس عند موقديها الأمن والزاد، وكان كرماء العرب يوقدون نيرانهم في مرتفع من الأرض كل مساء، ويزجرون كلابهم أنْ تهرّ على العابرين، أمّا البخلاء منهم فكانوا يطفئون نارهم إنْ أحسّوا أنّ كلابَهم تنبحُ أحدَ الأضياف. يقول حاتم الطائي:

يقولون لي أهلكتَ مالك فاقتصدْ
وما كنتُ لولا ما تقولون سَيِّدا

ويقولُ في موقف آخر:

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُه
وشقَّ على الضيف الغريبِ عَقورُها
فإنّي جبانُ الكلبِ بيتي مُوطّأٌ
جَوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرُها

ويقول عوف بن الأحوص:

ومُستنبحٍ يخشى القواءَ ودونه
من الليلِ بابا ظُلمةٍ وسُتورها
رفعْتُ له ناري فلمّا اهتدى بها
زجرْتُ كلابي أنْ يهرَّ عَقورها(٥)

ظاهرة العفة:

العفة من القيم الخلقية السامية التي سادتْ المجتمع العربي، وتفاخرَ بها الشعراء العرب على مرّ العصور. يقول عنترةُ العبسيّ مُعبِّرًا عن عفة نفسه:

وأغُضُّ طرْفي ما بَدَتْ لي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها
إنّي امرؤ سَمْحُ الخليقة ماجدٌ
لا أتّبِعُ النفسَ اللجوجَ هواها

(ديوان عنترة،١٩٧٠، ص: ٣٠٨).

والعفّة أيضًا سمةٌ محبوبة في المرأة، يقول الشنفرى واصفًا أميمَة:

لقد أعجبتني لا سَقوطًا قناعُها
إذا ما مَشَتْ ولا بَذات تلفُّتِ
أميمَةُ لا يُخزي نثاها حليلَها
إذا ذُكِرَ النِّسوانُ عَفَّتْ وجَلَّتِ

ظاهرة شرب الخمرة:

كان العرب في العصر الجاهلي يشربون الخمرة، ويبذلون في سبيل الحصول عليها النفيسَ من المال. يقول عنترة العبسي:

فإذا سَكِرْتُ فإنّني مُستهلكٌ
مالي، وعِرضي وافرٌ لم يُكْلم

ويقولُ طرفة بن العبد البكري:

ومازال تشرابي الخمورَ ولذتي
وبَيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها
وأفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعبَد

(أحمد، ١٩٩٩، ص:٦٩).

ويقول الأعشى ميمون قيس:

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ
وأخرى تداويتُ منها بها
أحبّ أثافتَ وقت القطافِ
ووقتَ عصارة أعنابها

ويستهلّ عمرو بن كلثوم معلقته قائلا:

ألا هبّي بصحنكِ فاصبَحينا
ولا تُبقي خُمورَ الأندرينا

وأما صفوان بن أمية فيتخّذُ موقفا مغايرا من الخمرة إذ يقول:

فلا والله أشربُها حياتي
ولا أشفي بها أبدًا سَقيما

ولمّا حرّم الإسلام شُرْبَ الخمرة تراجَعَ العربُ عن شُربها، ثم عاد بعضهم إليها في العصور التالية لصدر الإسلام، وخصّصوا لها قصائد أسمَوْها الخمريّات، وصفوا فيها الخمرة ومجالسَها ودنانها وآنيتها وسُقاتها وشاربيها وتأثيرها فيهم. يقول أبو نواس مُتباهيًا بشُربها:

ألا فاسقني خمْرًا وقلْ لي: هي الخَمْرُ
ولا تسقني سرًا إذا أمكنَ الجهرُ

ويقول واصفًا تأثيرها:

فلمّا شَربناها ودبَّ دبيبُها
إلى موضع الأسرار قلتُ لها: قِفي
مخافةَ أنْ يسطو عليّ شُعاعُها
فيطلعَ ندماني على سِرّيَ الخَفي٦

ظاهرة الأخذ بالثأر:

لم تكن العَربُ ترضَى بأخذ ديَة القتيل ظنّا منهم أنّ هامَهُ تظلّ تنوحُ على قبره طالبةً السُّقيا حتى يُؤخَذ بثأره، ولا يرضى بالدّية غير الضعفاء الذين لا حيلة لهم. يقول ذو الإصبع العدواني:

يا عمرو إنْ لا تدَعْ شتمي ومَنقصتي
أضربْك حتى تقولَ الهامة اسقوني

ويقول عبد العُزّى الطائي:

إذا ما طلبنا تبَلْنا عند مَعشَرٍ

أبَيْنا حلابَ الدّرِ أو نشربَ الدّما

وتقول (كبشة) شقيقة عمرو بن معديكرب مخاطبة قومها عندما قُتِلَ أخٌ لها:

فإنْ أنتم لم تثأروا واتّديتمُ

فمُشّوا بآذان النَّعام المُصلّم

وتقول أم عمرو بنت وقدان في أخٍ قُتِل، وقد فكّر قومُها في قبول الدِّيَة:

إنْ أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ

فذروا السِّلاحَ و وَحّشوا بالأبرقِ

وخُذوا المَكاحلَ والمَجاسدَ والبسوا

نُقَبَ النساء فبئسَ رهطُ المُرهَقِ

والمهلهل بن ربيعة رفَضَ أخْذ الدّية بأخيه كليب الذي قتلَه جسّاسُ بن مرة، وخاضَ حربًا طويلة طلبًا للثأرمن قبائل بكر، وظلّ يُحارب نهارا ويقف على قبر أخيه ليلا؛ ليخبره عمّن قتلَ منهم، يقول:

أكثرْتُ قَتْلَ بني بَكر بربّهمُ

حتى بكيْتُ وما يبكي لهم أحَدُ

آليتُ بالله لا أرضى بقتلهمُ

حتى أبهرجَ بَكرًا أينما وُجِدوا.

ظاهرة الحروب والغزوات:

عدّ العربُ المَوتَ في ميدان القتال أشرفَ الغايات وأنبَلها؛ فكثرتْ وقائعُهم وأيامُهم، وقد أوردَ أبو عبيدة المتوفى ٢١١ هـ ألفًا ومئتي يوم، وذكر بعضها ابن النديم في (الفهرست)، وتحدّثَ عن بعضها ابن عبد ربه في عقده الفريد، واهتمّوا كثيرًا بخيولهم وأنسابها وأسمائها، وبِرماحِهم وأطوالها وبسيوفهم ومَضائها. يقول عنترة العبسي:

بَكَرَتْ تُخوّفني الحُتوفَ كأنّني

أصبحتُ عن عرَض الحُتوفِ بمَعْزِل

فأجبتُها إنّ المَنيَّة مَنْهَلٌ

لا بُدَّ أنْ أسقى بذاك المَنهل

فاقنَيْ حَياءَكِ لا أبا لكِ واعْلمي

أنّي امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أقتلِ

(ديوان عنترة،١٩٧٠،ص:٧٦).

ويقول في قصيدته المُعَلّقة:

ولقد خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تدُرْ

للحرب دائرةٌ على ابنَي ضَمْضَم

ويقول بشامة بن عمرو مُحَرِّضا قومَه على القتال:

وحُشُّوا الحروبَ إذا أوقدتْ

رماحًا طوالا وخيلا فُحولا

ويصفُ عَمرو بن كلثوم التغلبي تحَرُّكاته وتحرُّكات فُرسانه في الميدان، فيقول:

نُطاعِنُ ما تراخى الناسُ عنّا

ونضربُ بالسُّيوف إذا غُشينا

غير أنه كان من بين العرب مَن اتصّف بالحكمة والتعقل، ودعا إلى نبذ الحرب ونفّرَ منها مبيّنًا أهوالها ومآسيها، ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى الذي جاء في معلقته:

وما الحربُ إلاّ ما علمتم وذقتم

وما هو عنها بالحديث المُرجّم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً

وتضْرَ إذا ضرّيتموها فتضرم

فتعْرككُم عَرْكَ الرّحى بثفالها

وتلقحْ كشافًا ثمّ تُنتَج فَتُتئِم

فَتُنتجْ لكم غلمان أشْأَمَ كلّهم

كأحمر عادٍ ثمّ تُرضع فتُفطم

(ديوان زهير بن أبي سلمى، ١٩٨٠ص: ٨١ - ٨٢).

ظاهرة التكسّب بالشعر:

التكسّبُ يعني إنشاءَ قصائد المديح لأجل كسْب المال؛ فقد اعتادَ بعضُ الشعراء إراقة ماء وجوههم على أبواب الأمراء والأغنياء بُغية نيل عطاياهم، وقد تحدّث بعضُ النقاد عن ظاهرة التكسُّب، واعتبروها نادرةً في مرحلة ما قبل الإسلام، والباحث في شعر هذه المرحلة قد لا يلمحُها في غير شعر الأعشى ميمون قيس الذي يقول مُصرّحا في قصيدة يمدَحُ بها قيس بن معديكرب:

ونُبّئْتُ قيسًا ولم أبلُهُ

كما زعموا خير أهل اليمَنْ

رفيعَ الوساد طويلَ النّجا

د ضخمَ الدسيعة رحبَ العَطَنْ

فجئتُكَ مُرتادَ ما خبّروا

ولولا الذي خبّروا لمْ تَرَنْ

فلا تحرمنّي نداكَ الجزيل

فإني امرؤٌ قبلكم لم أهَنْ(٧)

ظاهرة الوقوف على الأطلال:

أدّى حبّ العربي للمرأة إلى التعلق بها، والوقوف على أطلالها، وما أطلال المحبوبة إلا بقايا منزل أو موقد أو مسيل ماء، وجاءت معظم المعلقات مبدوءة بالأطلال، يقول امرؤ القيس مستهلاً معلقته:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسقط اللوى بين الدَّخول فحومل

فتوضحَ فالمقراة لم يَعفُ رسمُها

لما نسجتها من جَنوبٍ وشمْأَلِ

(الزوزني،٢٠٠٤، شرح المعلقات السبع، ص:١٨،١٧)

ويستهلُّ طرفة بن العبد معلقته بالوقوف على أطلال محبوبته خولة فيقول:

لخولةَ أطلالٌ ببُرقة ثهمَدِ

تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقوفًا بها صَحبي عليّ مطيّهم

يقولون لا تهلك أسىً وتجلّد
(المرجع السابق، ص: ٧١).

أمّا زهير بن أبي سلمى فقد وقفَ على أطلال محبوبته أم أوفى وأنشد:

أمِنْ أمّ أوفى دمنةٌ لم تَكَلّم
بحومانة الدرّاج فالمُتثلم
ودارٌ لها بالرقمتين كأنّها
مراجيعُ وَشم في نواشر معصَم
(ديوان زهير بن أبي سلمى، ١٩٨٠ص: ٧٤).

وهذا عنترة بن شداد العبسي يقف على أطلال محبوبته عبلة ويُبادلها التحية فيقول:

هل غادرَ الشُعراءُ من مُتردّم
أم هل عرفتَ الدارَ بعدَ توهم
يا دارَ عبلةَ بالجواء تكلّمي
وعمي صباحًا دارَ عبلةَ واسلمي
حُيّيتَ من طلل تقادَمَ عهدُه
أقوى وأقفرَ بعدَ أمّ الهَيثَم
(الزوزني،٢٠٠٤، ص:٢٠٢،٢٠١).

نظرة العربي إلى المرأة:

كان العربي أحوجَ ما يكون إلى امرأة يأوي إليها ويَنشد عندها الدّعة والارتياح من عناء الترحال والحروب، فوقفَ الشعراءُ على أطلالها، وشبّبوا بها، وتحدّثوا عنها حَديثَ المُحبِّ، فوصفوا جِسْمَها ومَناقِبَها وحَديثها ولِباسَها ومِشيَتَها، يقول الأعشى ميمون قيس واصفًا إحدى صواحبه:

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها
تمشي الهُوينى كما يمشي الوجي الوَحِلُ
إذا تقومُ يضوعُ المسكُ أصورةً
والزَّنْبَقُ الوَردُ من أردانها شَمِلُ

ويقولُ أمرؤ القيس بن حجر الكندي أنّه عرّضَ نفسه للمخاطر وهو يجتاز الحراسات المضروبة على المرأة التي يحبها، وهذا إيحاء بأنّها تستأهل المغامرة من أجلها:

وبيضةِ خدْرٍ لا يُرامُ خباؤها
تمتعتُ من لهو بها غيرَ مُعجلِ
تجاوزتُ أحراسًا إليها ومعشرًا
عليّ حراصًا لو يُسرّون مَقتلي
مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ
ترائبُها مصقولة كالسَجَنجَلِ
(ديوان امرئ القيس، ٢٠٠٢، ص: ٢٠-٢٣).

خبرة العرب بالنجوم والكواكب:

كان العربُ في العصر الجاهلي أصحابَ معرفة بالفلك اكتسبوها من طبيعة العيش في صحراء مترامية الأرجاء، تعلوها سماء صافية، وقد دَأبوا على تأمّل تلك السماء وما بها من أجرام وكواكب وظواهر فلكية، فعرفوا أسماء بعض النجوم والكواكب، وخبروا تحركاتها ومطالعَها، وربطوا ذلك بالمواسم والأحداث، وبالترحال والتنقل، ومن النجوم والكواكب التي تحدّثوا عنها في شعرهم: الشمسُ والقمر والثريا وسُهيل والسماك الأعزل والسماك الرامح والشِّعرى العَبور وبنات نعش وغيرها.

يقول امرؤ القيس الكندي متعجبا من طول ليله:

فيا لكَ من ليل كأنّ نجومَه
بكل مغار الفتل شُدت بيَذبل
كأنّ الثريا عُلقتْ في مصامها
بأمراس كتان إلى صُم جَندلِ
(ديوان امرئ القيس،٢٠٠٢،ص:٣٢).

ويقول النابغة الذبياني واصفا المتجردة، ومشبها لها بالشمس:

قامت تراءى بين سجفي كلة
كالشمس يوم طلوعها بالأسعُدِ

ويقول عمرو بن كلثوم التغلبي مشبها نحرَ صاحبته بضوء البدر، وعاطفًا نحرا على ما قبلها:

ونحرا مثل ضوء البدر وافى
بأتمام أناسا مُدْلجينا

ويقول عنترة بن شداد: إنْ كنتُ في عدَد العبيدِ فهمّتي فوقَ الثُريّا والسِّماكِ الأعزَلِ

ويقول النابغة الجعدي:

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرّة نيّرا
تلألأ كالشِّعرى العَبور توقدتْ
وكان عماءً دونها فتحسرا

ويقول في موضع آخر:

تمزّزتُها والديكُ يدعو صباحَه
إذا ما بنو نعش دنَوا فتصوّبوا

وبنات نعش من منازل القمر الثمانية والعشرين، وهي سبعة كواكب، أربعة منها تأخذ شكل النعش، وثلاثة بناتها. يقول لبيد بن ربيعة: أخشى على أربدَ الحُتوفَ ولا أرهبُ نوءَ السِّماك والأسَدِ

والأسد يطلق على البرج الفلكي الخامس والكوكبة التي يحتويها، وهو مشتق من أسد (نيميان) الذي قتله هرقل كما تقول الأساطير الإغريقية، ويطلق اسم الأسديات على وابل من الشهب التي تتشعّب من الكوكبة. (٨)

الحياة الدينية في الشعر الجاهلي:

كانَ العربُ في العصر الجاهلي في عامتهم وثنيين، يؤمنون بما يعتقدون أنّه

قُوى إلهيّة كالكواكب والنار والأصنام، فمن أصنامهم المشهورة اللات والعزّى ومَناة وهُبَل، ومنهم مَن كانَ يعبدُ الشِّعرى، وبعضهم كان يدين بالنصرانية و اليهودية، وقليلٌ منهم كان على دين إبراهيم عليه السلام. وقد عَكَسَ الشِّعرُ العربيُ جانبًا من الحياة الدينيَّة للعرب في العصر الجاهلي، وبما أنَّهم كانوا وثنيّين في ذلك العصر فقد أقسَمَ بعضُ شُعرائهم ببعضِ أصنامهم. يقول أوسُ بن حجر:

وباللاتِ والعُزّى ومَنْ دانَ دينَها
وبالله، إنَّ اللهَ منْهنَّ أكبَرُ

وظنّ بعضُ العرب أنّ التقرّبَ إلى اللّه لا يكون إلا عن طريق الأصنام، وقد أكّدتْ بعضُ الآيات القرآنية ظنَّهم هذا،يقول اللّه تعالى في الآية ٣ من سورة الزُمَر: "ما نعبُدُهم إلا ليُقرِّبونا من اللّه زُلفى".

تأثّر الشعراء العرب بالبيئة التي يعيشون فيها:

تأثّرَ معظم شعراء العصر الجاهلي بحياة البداوة، حيث كانوا يتنقلون في صحارى واسعة من شبه الجزيرة العربية، وقليلٌ منهم من كان يرتاد المناطق الساحلية، ودليل ذلك قلة احتكاكهم بالبحر، وقلة أحاديثهم عنه، لكنهم أسهبوا في وصف الصحراء وما بها من رمال وحيوانات ونباتات برية، وما يتصل بها من سماء صافية ونجوم لامعة وشمس ساطعة، فلا تكاد تخلو قصيدة من وصف ناقة أو فرَس أو ذئب أو ظبي أو مهاة، كما أنّهم فصّلوا في وصف السماء وبروجها ونجومها وأسمائها ومساراتها ومطالعها.

خاتمة:

وهكذا، فقد ظلَّ الشِّعرُ العربيُ سِجلاّ حافلا يصوّر حياة العرب ويزخر بالحديث عن آمالهم وتطلعاتهم وحروبهم وقِيَمهم، وما يستلزم ذلك من خِصالٍ حميدة، كالكَرَم والشجاعة وإغاثة المَلهوف وحماية المُستجير، وإيقاد النار والدفاع عن الحمى. كما أنّه يعكسُ التطوّرات الحربية والعادات الاجتماعية والحياة الدينية التي تميزت بها حياة العرب قي فترة ما قبل الإسلام.

ولا شكّ أنه وليدُ فصاحَة وبلاغة وصفاء سريرة، فاقَ العَربُ به سائرَ الأمم، وقد قدّموه على النثر لعذوبة موسيقاه، وسهولة حفظه، ولأنّ التغني به لا يتطلب منهم معرفة بالقراءة والكتابة، وهو من أهمِّ المَصادر التي يَعتمد عليها الباحثون في تعرّف حياة العرب وطِباعهم وسلوكاتهم ومعتقداتهم على، وهو الإرث الثمين الذي تناقله العرب جيلاً فجيلا، ولأنّه وليد اللغة، واللغة قابلة للتطوّر؛ لذلك فهو قادر على مواكبة التطوّر والتجديد، شريطة أن يتم ذلك في إطار الخصائص المعروفة للشعر، وهي الوزن والموسيقا والاتصال الشعوري بين الشاعر والمتلقي، فإنْ افتقدَ الوزنَ والموسيقا صار نثرا، وإنْ افتقدَ الاتصالَ الشعوري صار نظما، ويشمل هذا التعريف الشعر العمودي والمرسل وشعر التفعيلة، أمّا قصيدة النثر فليست من الشعر في شيء، وإنْ تضمّنت اتصالاً شعوريّا ونسجًا فنيّا وشطحات فلسفية، فهذا كله لا يخرجها من إطار النثر الفني.

المراجع:

- ابن عبد ربه، أحمد (١٩٩٨). العقد الفريد،ج٦ تحقيق محمد عبد القادر شاهين، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- قتيبة، بن مسلم (٢٠٠١).الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الحديث.
- أبو مصلح، كمال وآخرون(١٩٨٨). أبو تمّام حياته وشعره، بيروت: المكتبة الحديثة.
- أحمد، محمد عبد القادر (١٩٩٩). الغلام القتيل طرفة بن العبد، البحرين: جامعة البحرين.
- البارودي، محمود سامي (١٩٩٢). ديوان شعر، تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
- الزوزني، حسين (٢٠٠٤). شرح المعلقات السبع، تقديم عبد الرحمن المصطاوي، بيروت: دار المعرفة.
- السيّاب، بدر شاكر (١٩٧١). ديوان شعر، بيروت: دار العودة.
- الضاوي، أحمد عرفات(١٩٩٨). التراث في شعر رواد الشعر الحديث، دبيّ: مطابع البيان.
- الظهار، نجاح أحمد (١٩٩٦). الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز.
- العبادي، أحمد مختار(١٩٧١). في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت:دار النهضة العربية
- العمري، محمد (٢٠٠٥). الدلالة التاريخية للشعر، مجلة التاريخ العربي، العدد٣٤، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- الفرزدق، همام بن غالب (١٩٦٦). ديوان شعر، المجلد الثاني، بيروت: دار صادر.
- القُرَشيّ، أبو زيد(١٩٩٢).جمهرة أشعار العرب، شرح علي فاعور، بيروت: دار الكتب.
- المتنبي، أحمد بن الحسين (١٩٧٧). ديوان شعر، شرح العكبري، بيروت: دار المعرفة.
- المزني زهير بن أبي سلمى (١٩٨٠). ديوان شعر، تقديم كرم البستاني، بيروت: دار صادر.
- اليمني،عمارة (١٩٩٧). لنكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، القاهرة: مدبولي للنشر.
- اليمني،عُمارة (٢٠٠٠). ديوان شعر، تحقيق عبد الرحمن الإرياني وأحمد المعلمي.
- الكندي، امرؤ القيس (٢٠٠٢). ديوان شعر، تحقيق عمر الفجاوي. عمّان: وزارة الثقافة.
- حسين، محمد(١٩٦٨).الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، بيروت: دار النهضة العربية.
- حسين، محمد محمد(١٩٦٨). ديوان الأعشى ، بيروت: المكتب الشرقي للنشر والتوزيع.
- ضيف، شوقي(١٩٦٠). العصر الجاهلي، القاهرة: دار المعارف.
- عبد الباري، ماهر شعبان(٢٠١٢) التذوق الأدبي، دار الفكر: عمّان
- عتيق، عبد العزيز (١٩٧٠). علم البديع، بيروت: دار النهضة العربية.
- عتيق، عبد العزيز(١٩٧٢). في النقد الأدبي، بيروت: دار النهضة العربية.
- العبسي، عنترة (١٩٧٠). ديوان شعر، تحقيق محمد مولوي. القاهرة: المكتب الإسلامي.
- هلال، هيثم جمعة (٢٠٠٤). حروب ومعارك العرب في الجاهلية، بيروت: دار المعرفة.
- http://www.airssforum.com/t-١١٧٢٨print.html